قصة كردية

الموقـد

*****

قصة : فوزية عز الدين رشيد

ترجمة : محمد صابر محمود

كأنك كنت ذائباً فوق الكرسي . جسدك كان خائراً متكسراً . غارزاً مرفقك في عظام ركبتك .

رأسك كان مثقلاً الى درجة تكاد تنوءُ بحمله رقبتك ، وكأنه عرف نبتة شائكة قد جلدَ بالعيدان ، وهو يتدلّى من بين قصبات أصابعك الطويلة المعقوفة كأسنّة المذرى .

ثمة نحلة هي الأخرى كانت تصدم بجسدها واجهة زجاج النافذة دون أنقطاع . تدق بها رأسها من جهة ، ولتضيّع عليك رأس شلّة[1] همومك من جهة أخرى . قلت في نفسك : «لا مناص من ذلك ، إنه ليس مما يحصل بالأكراه . إن الله لم يمنّ علينا بأكثر من هذا . وليس بوسعنا أكثر من ذلك . أجل . . وهل هو عيب ؟ إنّ مّما يعيب هو أنْ نورّط أنفسنا في معضلة ، نظلّ نئنّ تحت وطأة وخامة عارها ، ما دمنا أحياء . فضلاً عن أنه سوف نصبح أضحوكة يتلهّى بنا الناس . كنّا ننعم بالطمأنينة ، وراحة البال . لم يكن ينقصنا شيءٌ . نرزق بالأطفال ، أو لا نرزق إلى حيث . .»

عاودتِ النحلةُ ضرب زجاج النافذة بجسمها ، فآستلبتْ من بين يديك زمام المسألة من جديد . رفعتَ رأسك بأناة . ألقيتَ عليها نظرة ، ولم تنبس .

– سيدي . . هذه هي المرّة الثالثة التي أعاود فيها الشروع بالمعاملة ، من أولها ، ولكن دون جدوى . . إنّها تتراوح في مكانها ، دون أن تتمّ ، كي أخلص أنا ، وتتفرّغوا أنتم بدوركم لمشاغلكم . . لا أكاد أصل بها الى مراحلها النهائية ، حتى تبادرونني بقولكم : لا يمكن . . لازالت ناقصة .

الرجل الواقف أمام منضدتك ، تحيّن الفرصة التي رفعت فيها رأسك . فنثر – في غمضة عين – كل ذلك الكلام الذي كان في جعبته ، واضعاً – في الوقت نفسه – رزمة الأوراق التي يحملها بين يديك .

تصفّحتَ – بمؤخرة عينيك – الورقة الفوقانية من رزمة الأوراق ، فتذكرت القضية ، ثمّ بعدها لم تمدّ إليها يدك – بهزّةٍ من رقبتك قلت : –

– عجيب أمرك ، والله يا أخي ، ألا تعرف معنى لكلمة (لا يمكن) . . عندما يقال في أمر ما : لا يمكن ، فمعنى ذلك أنه غير ممكن . . لماذا إذن هذا الأصرار ؟ ! . غير ممكن يا أخي . مستحيل ، فليقتنعْ به عقلك و . . كفى .

– ولماذا مستحيل ، يا أخي . . ما الذي ينقصها ؟ ! أخبرني حتى أحاول تكملته ؟ . . إذن لماذا لا يمكن ! ؟

كرة أخرى رنّ جرس الهاتف ، فانتشلك من تحت تأثير ثقل كابوس ذلك السؤال للرجل . . غرقت في دوّامة من التردد . . أحترتَ إلى أن استعدتَ وضعك الطبيعي . . عندئذٍ ، وببرود – مددتَ إليه يدك : –

– نعم . . نعم . . حسناً أختي حسناً . . أنا هو . . طيّب .

وبالبرود ذاته ، أعدتَ السمّاعة إلى مكانها ، ثم أشعلت سيجارة أخرى بنار سيجارتك السابقة . أخذت منها نفساً ، أو نفسين عميقين ، ثم سرعان ما نهضت ، مندفعاً كي تبارح مكانك ، إلاّ أنّك ألفيتَ الرجل ، وهو لا يزال واقفاً . شفتاه كانتا تتحرّكان ، ولكنْ إمّا أنّك لم تكن تسمع شيئاً ، وإمّا أنّه لم يكن يقول شيئاً : –

– أيها السيّد . . يا أخانا ، إنّها بآختصار لا تحمل موافقة المدير العام . . لا يمكن إنجازها . قلت ذلك للرجل ، وأنت سائر ، بعدها لم تنتظر شيئاً آخر . أوصلت بنفسك – دفعة واحدة – أمام باب المدير العام . وإذْ مددتَ يدك للباب ، ثمة برودة أثلجتْ أصابعك ، وأنت الأخر إنتابك نوع من الفتور ايضا . وكمن افتقد شيئا بحثت قليلاً من جيوبك ، ثم رويداً رويداً أدرت معها . وجهتك – على مهل – صوب غرفتك ثانية .

كنت تمنّي نفسك لو أنّ أحداً لم يلاحظ عليك ذلك . ولولا أستحياؤك من صاحبك لكنت ترغب في أن تصيح بأعلى صوتك : «كلاّ . . لن أذهب . . حينما كنت أقول لها قبل ذهابنا إلى الفراش : تناولي الحبّة ، كانت تتحايل عليّ . ، أمّا الآن فكيفما فعلتْ هي بنفسها ، هكذا فلتتحمل نتائج فعلتها . . إنني لم أر في حياتي إمرأة بهذا القدر من العناد ، والأصرار ! . . ثم أنّه ، ها قد مضى سبعة أشهر ، منذ أنْ طردتها من البيت ، دون أن أتفقّد أحوالها،وسوف لن أذهب الى المستشفى لعيادتها أيضاً . . والآن لو ذهبتُ فماذا أقول ! ؟» .

تداعيتَ فوق كرسيّك ثانية . أنشبتَ حنكك في ظاهر صدرك . ركزّتَ نظراتك في فجوة ما بين قدميك كلتيهما . وقد كنت مثبتاً إبهامك على صدغك ، تمرّر خنصر كفّك ، وبنصرها على جبينك ، وكأنك تلاعب أوتار آلة موسيقية . في حين كان دخان سيجارتك يتصاعد هو الآخر . من بين أصبعيك الأُخريين الى السماء ، مثيراً هياج النحلة أكثر ، فأكثر .

كنت تقول في نفسك : «في المرّة الأولى بقيَ ساعتين ، أو ثلاثاً على قيد الحياة ، ثم مات ، وفي المرّة الثانية كادتْ أنْ تلفظ هي الأخرى أنفاسها الأخيرة على أثره ، وفي المرّة الثالثة كان مخدجاً[٢] . ناقص الخلق ، فخنقته القابلة . ترى ما الذي يمكن أنْ تلدَ في هذا المرّة ؟ ! من يقول بأنّها لا تلد علامة أخرى من علامات آخر الزمان . . مَنْ يدري ؟ ! . . إنه لأمر في غاية الغرابة . . إنْ تُرزقْ بالمولود فهو بحدّ ذاته بلاء ، وإن لا فالبليّةُ أدهى ، وأمرّ . إن كان الأنجاب بهذه الوضعية ، أليس عدمه أولى ، وأحسن ؟ .

لطمت النحلةُ مرّة أخرى بجسدها واجهة زجاج الشباك . رفعت رأسك مضطراً . ألقيت عليها نظرة . إبتسامة مليئة بالسخرية ، فرّجتْ ما بين شفتيك . من دون أن تشعر نهضتَ ، ففتحتَ الشباك ، ومن ثم أخذتَ نفساً آخر من سيجارتك . بعدها رميتَ بالعقب إلى الخارج . وضعتَ يدك على خاصرتك . شرعت تمعن النظر في أولئك الناس الذين كانوا يتحرّكون ، جيئةً . وذهاباً على أديم الشارع مثل زخارف[٣] الماء . سرّح بك فكرك : «يا لها من أمرأة مستبدة برأيها ، كأنّ في أذنيها وقراً . . أنا أقول لها : إنّ تلك المسألة ليست حرّية بأن تفعلي من أجلها كلّ هذا ، غير أنّها تردّ عليّ ، فتقول : إن المرأة العاقر ، ما هي إلاّ خادمة لقاء إشباع بطنها ليس غير . . ألا قولي : ألستِ تلدين

لي أنا وحدي ؟ . أليس همّكِ من وراء الحمل ، والأنجاب هو أن لا ينطفيْ موقدي ! ؟ . . أنا لستُ براغب فيه . . وإلى الآن أقولها بملءِ فمي : إنّني لا أرغب فيه ، ولا أريده .»

لم تكن قد أنتهيت تماما من نطق اخر كلمة حتى رفعت رأسك ، وكمن يضرب على كاهله بقوة ، صوبت نظراتك الى مكان ناءٍ وبعيد ، ثم اغلقت فاك ها . . هل صحيح بأنني لا اريده ؟ ولكن ماذا بصددها هي ؟ من قال انها لا ترغب شخصيا في مثل هذه الدربكة[٤] . . ها ؟ ؟ ان كان كذلك فهو من حقها . . » .

كنت على وشك أن توبّخ نفسك في أنّه كيف ؟ وإلى تلك اللحظة بالذات ، لم يَدُرْ بخلدك ، أن تفكّر في ذلك الحقّ الذي يخصّها ؟ . غير أنّك بدلاً عن ذلك ، زممتَ شفتيك ، فألتفتتَ على عجل ، ثم شرعت تمسح ما تصبّب على جبينك من عرق ، قائلاً لنفسك ، ما فحواه : — «لا . . لا . . ليس كذلك . إنّها تتمتّع بذلك الحقّ فيما لو تحمّلتْ لوحدها تبعات همومه .:وأن لا يتسمى بأسم أنا،لا : إن ولدته فلتأخذه معها إلى بيت أبيها» .

مرّة أخرى رنّ جرس الهاتف . خفتَ من أنْ تمدّ إليه يدك ، وإنما نظرت إليه . . تفرّستَ في وجه صاحبك . هو بدوره تأمل فيك أيضاً . أنتما كنتما تتفرّسان في وجه بعضكما البعض ، بينما كان الهاتف يرنّ بأستمرار . هو رفع سمّاعة التلفون . .

لم يمرّ طويل وقت حتى أنزلها من حافة أذنه ، ثمّ وضع راحته فوقها : —

— يطلبونك . . أنت .

— ألم يقل مَنْ هو ؟

— لا أعلم . . إنّها إمرأة . . لا يكاد صوتها يسمع . . تقول : أخبره بأنها أم (ژينو) . رفعت رأسك . فكّرتَ ملّياً ، مقرّباً حاجبيك من بعضهما ، غير أنّك لم تتعرّف عليها . صديقك ناولك التلفون ، فوضعت السمّاعة على أذنك بأناة : —

— (ژينو) يقبّل يد والده . . إننّا منتظرون في المستشفى الذي على جهة الشمال ، كي تأتي لتأخذنا . .

تعرفتَ على الصوت . أكفهرّتْ ملامحك . . نهضتَ على قدميك . نغمات الصوت الرقيقة أعادت الى محيّاك الحمرة ، خلال لحظات . شفتاك أنفرجتا . مهما حاولت ، فلم يسعفك فمك على النطق ، ولو بكلمة . سرعان ما أندفعت بأتجاه الباب .

هناك أصطدمت ناصيتكَ بجبين الرجل . أسقطتَ من يده رزمة الأوراق . لم تسنح لك الفرصة للأعتذار منه . عاودَ اللحاق بك أمام باب غرفة المدير العام . كان واضعاً أصبعه على أوراق المعاملة : —

— هاك ، يا سيدي . . لقد وافق المدير العام عليها . . نعم . . هو ذا توقيعه .

— طيب . . طيّب يا عزيزي . . رجاءاً لو تفضلتَ من دون تكليف ، وراجعتني غداً صباحاً ، فسوف أنجزها لك .

لم يكن في وسعك أن تقول أكثر من هذا ، أثناء ما كنت تسير . وصلتَ إلى الباب . كأيّ صديق قديم ، ولفتَ إلى الداخل . ما كان بأمكانك أن تنتظر كلمة (تفضّل) ، وقد كنتَ على وشك أن تنسى (صباح الخير) .

رحت تعتصر كفيك . تملؤك نشوة فرح طاغية . لم تدرِ كيف قلت : —

— يا سيّدي . . لو سمحتم سيادتكم . . لقد رُزقنا بمولود . . كي أذهب لآخذ عائلتي ، من المستشفى الى البيت . . سوف أعود غداً .

* * *

الهامش :

١ — الشلّة : — خصلة من خيوط الغزل .
٢ — مخدج : خديج : — المولود ناقص الخلق
٣ — زخارف الماء : دويبات صغيرة تطير على الماء . (القمص) .
٤ — الدربكة : الرحام والأختلاط .

القصة منشورة في العدد التاسع والعشرين من مجلة (كاراوان) (المسيرة) ، لشهر شباط من عام ١٩٨٥ .